# أهداف تربية العرب قبل الإسلام

د. حسان محمد حسان

تفاعل عرب ما قبل الإسلام داخل شبه جزيرتهم وعلى أطرافها مع تحديات ومثيرات، بعضها داخلي وبعضها خارجي.

وليس من وظيفة هذه الدراسة الاستطراد في تفاصيل ذلك بل تكفي الإشارة إلى أنه مع الجبال والهامات، والأودية والواحات، والهضاب والنجود، والأحقاف والربوع عاش عرب الحضر والوبر يتحملون حينا شظف العيش وشح الموارد، ويتعرضون حينا آخر لتهديدات إمبراطوريات وممالك على الرغم من نقص خيراتهم وقلة إنتاجهم.

والتصور الغالب أن شبه الجزيرة قبل الإسلام كانت صحراء جرداء، تعاني القيظ والرمضاء، وتعج بالبدو والغبراء[1]. ومثل هذا التصور ليس صحيحاً على إطلاقه لأن شبه الجزيرة كانت حافلة بالتنوع والاختلاف طبعياً وجغرافيا، بشريا واجتماعيا. صحيح أنها تبدو وكأن الغالب عليها اللون الأصفر والبدو الرحل إلا أن المدقق في تفاصيلها سوف يكتشف الآتي:

**التنوع الطبعي والجغرافي:**

إذا بدأنا بالبيئة الطبعية الجغرافية فسوف نجد اختلافاً بين المناطق من حيث الارتفاع والانخفاض، والاستواء والانحدار، ونوع التربة وتركيبها، والسخونة والبرودة، والجفاف والرطوبة، والمطر والرياح، والمياه والنبات، والطير والحيوان وما ارتبط بذلك من فروق ـ قليلة أو كثيرة ـ من حيث:

الزرع والضرع، والشجر والثمر، والبناء والعمارة، والصناعة والتجارة، والمعارف والدرايات، والأسلحة والأدوات، والفنون والمجون، والمرح والترح.

لهذا كله لا يمكن تصور أن بيئة النجود والوهاد كانت مماثلة لبيئة البحر والمحيط والخليج وهي حدود جعلت لشبه الجزيرة خصائص جغرافية ومناخية ينساها كثيرون.

والحق أن الجاهلي ـ شاعراً وناثراً ـ لم يقف صامتاً أمام هذا التنوع، من هنا حفل الشعر الجاهلي ـ بتكثيف شعري راق، وعبارة أنيقة خلابة ـ باكتشاف وتوضيح الفروق بين القبائل، والبطون، والعشائر، والفصائل، وتكفي الإشارة إلى قصيدة الأخنس بين شهاب التغلبي التي ورد فيها:

لكل أناس من مَعَدٍّ عمارة  عَروض إليها يلجئون وجانبُ

ثم استطردت القصيدة ــ وغيرها ــ توضح اختلاف خزاعة عن قُضاعة، ولُكيْز عن بكر، وتميم عن تغلب، وكلب عن غسان، وبهراء عن إياد، ولخم عن جذام... إلخ.

وأغلب الظن أن الشعر الجاهلي ليس مرجعاً في علوم البيئة والاجتماع بحكم أنه شعر من جهة، وجاهلي من جهة أخرى، ومن ثم نجده حافلاً بمشاعر الفخر والهجاء، والمدح والذم. إلا أن الحد الأدنى أنه التفت للظاهرة وصورها بأسلوبه وخيالاته، بصوره وعواطفه.

**التنوع الاجتماعي والبشري:**

وإذا انتقلنا إلى البيئة الاجتماعية والبشرية فسوف نجد فروقاً وتمايزات يرجع بعضها إلى الدم ودرجة نقائه، والمال وكمية ثرائه.

والعرب كما نعلم جميعاً لم تكن عربا واحدة تكونت في فترة تاريخية واحدة بل الحد الأدنى الذي أشارت إليه معظم المراجع أن العرب كانوا عرباً عاربة[٢]، ومتعربة[٣]، ومستعربة[٤].

وداخل هذه الموجات البشرية تمايز الناس وفقا للجنس واللون، والحسب والنسب، والمكانة والمنزلة، والثراء والعطاء.

واختلفت درجات اليسر والعسر بين أهل المدر[٥] وبين أهل الوبر، وبين الأحرار من جانب وبين الموالي والعبيد من جانب آخر. ولا نستطيع تجاهل أن بعضاً جمع مالاً وعدده من تجارة الرقيق، والميسر والرهان، والسلب والنهب، والبغي والسبي، وعطايا الفرس والروم.

وبصفة عامة يمكن القول بأن معظم أهل الوبر عاشوا على رعي الأنعام والأغنام، والقنص والصيد مع لهيب القيظ والرمضاء، ولدغ الحشرات

والحيات، ولعل هذا ما عبر عنه الجاحظ بقوله في كتاب الحيوان: «الابتلاء بالناس والمخلب، وباللدغ واللسع، والعض والأكل».

**تفسيرات مختلفة لجاهلية واحدة:**

أثارت كلمة الجاهلية معاني متعددة وتفسيرات متناقضة، وعند كثير من القدماء ارتبطت الكلمة بالجهل والجهالة، والجهل بهذا المعنى نقيض العلم فهو يفيد عدم اتباع العلم، أو عدم العلم به[٦]. وتكرر هذا المعنى مراراً عند القدماء، وفي كثير من الحالات حُمِّل معاني إسلامية مخلَّصة نقية أرادت أن تصبغ الفترة السابقة على الإسلام بكل سمات الشر والتهتك، والتخلف والتبذل.

وإذا انتقلنا إلى معاني الجاهلية عند الباحثين المعاصرين فسوف نجد أحدهم يؤكد أنها ليست مشتقة من الجهل الذي هو نقيض العلم بل من السفه والطيش، والحمق والنزق، وهي بذلك تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل[٧].

وإلى هذا المعنى نفسه ذهب باحث ثان بقوله إن الجهل هنا يقصد به السفه والحمق، والتهور وعدم ضبط النفس، وفقدان السيطرة على العقل، وعدم السلوك الحكيم[٨].

وذهب باحث ثالث مذهباً مختلفاً فربط الجاهلية بالعدوان وسفك الدماء أكثر من أن تكون تعبيراً عن أمية دينية أو علمية[٩].

والنص الأخير يثير ردود فعل قوية عند كثير من الباحثين لا سيما أنه ربط الجاهلية بالعدوان وسفك الدماء في حين أن كثيراً من الثقات يربطونها بالشرك والوثنية وعدم وجود كتاب سماوي، وينفون ربطها بعدم معرفة القراءة والكتابة «فالأمية تعني الوثنية، لا الأمية بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة»(١٠).

وقد اتضحت الفكرة السابقة بصورة مؤكدة عندما نشرت جامعة الملك سعود كتابا عن قرية «الفاو» باعتبارها صورة للحضارة العربية قبل الإسلام.

وقرية «الفاو» التي تشرف على الحافة الشمالية الغربية للربع الخالي على بعد ما يقرب من ٧٠٠ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة الرياض، و ٢٨٠كم إلى الشمال الشرقي من مدينة نجران كانت عاصمة لدولة كندة، ومركزاً تجاريا مرموقاً بين الجنوب والشمال والشرق.

وأثبتت الأبحاث أن الكتابة في هذه القرية كانت في كل موقع : على سفوح الجبال، وفي السوق والمعبد، وعلى اللوحات الفنية، وعلى جدران المدينة السكنية، وعلى شواهد القبور، وعلى العظام والخشب، وعلى الأواني الحجرية والمرمرية، وعلى الجرار والتماثيل، وعلى الأختام والمسكوكات، وعلى أغطية الجرار(١١).

وبطبيعة الحال لم يقتصر الأمر على مجرد قرية «الفاو» بل امتد إلى أرجاء عديدة من شبه الجزيرة وسواحل الخليج العربي حيث عثر على أنواع من الكتابات المعينية والسبئية، والحميرية والنبطية وغيرها، وكان أشهر هذه الكتابات كتابة أهل حمير، والمعروفة باسم الخط المسند(١٢).

واستخدام العرب الكتابة في بعض فنون حياتهم في المعلقات على أستار الكعبة [١٣] يقرؤها العابد والوافد، وفي معاملاتهم ووثائقهم التجارية، وفي عقد المحالفات بين القبائل وأشهرها في الجاهلية حلف الفضول.

أما بالنسبة للأجراء والغبراء، والأرقاء والإماء فما كانت لديهم حاجة لتعلم قراءة أو كتابة، كما أن قسوة حياتهم ما كانت تسمح بذلك.

ولم يشجع على ذلك مجرد القيود المادية من صعوبة أدوات التسجيل والتدوين، أو بساطة الحياة وعدم حاجتها إلى توثيق وتسجيل بل امتد أيضاً إلى الفن ولا سيما الشعر؛ فمعجزة العرب الأولى، وديوان حياتهم، ومصدر فخرهم واعتزازهم ما كان في حاجة إلى تسجيل وتدوين، ولا استلزم القراءة والكتابة؛ فالشعر العربي بما فيه من موسيقى وقافية شجع على تنمية قدرات مثل الحفظ والتذكر، والتخيل والتصور ونمى لديهم مواهب مثل الارتجال والاسترسال، والإلقاء والإنشاد على حساب قدرات ومهارات أخرى، وفي ذلك يقول واحد من أساتذة الصوتيات: «لا شك أن حفظ الشعر وتذكره أيسر وأهون. ولعل السر في هذا هو ما في الشعر من انسجام المقاطع وتواليها بحيث تخضع لنظام خاص في هذا التوالي ومتى دربت الآذان على هذا النظام الخاص ألفته وتوقعته أثناء سماعها»[١٤]. من هنا ندرك أن موسيقى الشعر وإيقاعه سهلا حفظه، وكلما زاد الحفظ نمت القدرة على التذكر من غير حاجة ماسة إلى كتابة وقراءة «فالموهبة تقوى بالممارسة والتدريب، والعادة تصبح طبيعة بالتكرار والاستمرار، من هنا كانت بين الجاهليين قوة في الذاكرة وحدة في الحافظة، بسبب اعتمادهم

الكلي عليها، مدفوعين إلى ذلك بحكم شغفهم الطبيعي لحفظ هذه الآثار وصيانتها»[١٥].

**ملامح المجتمع الجاهلي:**

غالباً ما تألفت القبيلة العربية من ثلاث فئاتٍ أو طبقاتٍ متميزة:

* أبنائها الأحرار الذين يربطهم الدم والنسب، وتجمعهم المنافرة والمفاخرة.

* والعبيد وهم رقيق مجلوب من الحبشة وغيرها، وأسرى الحرب عن طريق السبي، والمدينين الذين عجزوا عن تسديد ديونهم.

* والموالي وهم عتقاء القبيلة، والخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة ما ارتكبوه من جرائم ومخالفات.

وانعكست هذه التقسيمات الحادة على مظاهر الحياة المختلفة بما فيها من حقوق وواجبات، ووظائف ومهن، وأدوار ومكانات، ولباس ومظهر، وأثناء فترة الرضاعة والحضانة، وعند الزواج والنسب، وحتى مع فدية الأسر ودية القتل؛ ففي حين كانت تصل الفدية والدية إلى ألف من الإبل في حالة الملوك، كانت تنخفض إلى خمسة أو أقل في حالة سواء الناس، وإلى مثل هذه الفروق أشار بعضٌ ومنهم «جواد علي» في الجزء الثامن من كتابه[١٦].

وعلى الرغم من الصعوبة المنهجية والاجتماعية للفصل بين العرب والأعراب نتيجة الحركة والنزوح، والتفاعل والاندماج فإن بعض الباحثين مثل ابن خلدون قديماً وبلاشير وأحمد أمين حديثاً أرجعوا الفروق بينهم إلى عوامل وراثية. والحق

أن التفسير بناء على عوامل وراثية فيه كثير من العنصرية والإسقاط النفسي، وكثير من الجمود والقطعية التي لا تسمح بتغيير أو تعديل، ولا تثبت أمام التحليل المجتمعي القائم على التفاعل والتكامل.

ووسط هذه البيئة المليئة بالتحديات والصعاب طور العرب القدماء معارف ومهارات تتصل بالشعر والخطابة، والقصص والأيام، والأنساب وقيافة الأثر والبشر، والفلك والتنجيم، والكهانة والعرافة[١٧]، والطب والأعشاب، والبيطرة والخيل، والأنواء ومهاب الرياح.

وإذا كانت الحفريات والدراسات تؤكد وجود حواضر وبواد داخل الجزيرة العربية وعلى أطرافها عامرة بأنماط الثقافة المحفورة والمرسومة، الشفهية والمكتوبة فالغالب أن العرب «لم يتعلموا هذه العلوم عن مدارس ولا ألفوا فيها كتباً، وإنما هي معلومات تجمعت في ذاكرتهم بتوالي الأجيال بالاقتباس والاستنباط»[١٨].

وامتزج العربي مع طبيعته المادية الاجتماعية وكونا وحدة واحدة يصعب الفصل بينها، ويصعب تحديد المثير والاستجابة، الفعل ورد الفعل:

** فشظف العيش وخشونة الحياة ساعدا على إرهافه ونحافته، ونحافته ساعدته على الصبر والتحمل، والكر والفر، وشظف بيئته وقسوتها جعلا من الإبل الحيوان الأمثل الذي يتحمل الكثير ويكلف القليل.

وسوف نحاول في الصفحات التالية تحليل صلة بعض المعارف والدرايات الجاهلية بتحديات بيئتها، وتفاعلات مجتمعها، وكيف توسل بها العرب

لترويض بيئتهم، وحل مشكلاتهم، وإشاعة الطرب والأنس، والبهجة والنشوة.

**مرارة البيئة وعذوبة الشعر:**

المعروف أن الشعر ديوان العرب، وسجل حياتهم، ومصدر اعتزازهم. ولم يكن الإبداع الشعري مجرد سمة فردية اشتهر بها فرد واحد بل أفراد كثيرون إلى حد أن بعضا تصور أن جميع العرب شعراء وأدباء، يفيض حديثهم بلاغة وحكمة، فصاحة ورصانة. ولا شك أن لهذه الظاهرة عواملها المجتمعية، والبيئية، واللغوية، والشخصية، والعقلية بحيث لا يمكن تفسيرها بعامل واحد أو سبب منفرد.

وثم تفسيرات تذهب إلى أن حركات العمل الطبيعية المنتظمة ـ ولا سيما حركات العمل الجماعي ـ كانت تحث من تلقاء نفسها على التغني بأغان موزونة مصاحبة للعمل وميسرة له تيسيراً نفسيا، وقد رويت لنا عن العرب مثل هذه الأغاني التي تصاحب العمل عند السقي من الآبار مثلاً، وعند البناء والهدم، والحفر والردم.

إذن من خلال العمل الفردي والجمعي بدأ الرجز والهزج، وتطورا تدريجيا إلى غناء وشعر، وربما ساعد على ذلك الظعن بالإبل مسافات طويلة في رحلات التجارة والبحث عن الماء والعشب؛ فمن خلال حركة الإبل الوئيدة ومشيها المنتظم، ومن خلال حدائها ساعات طويلة قطعاً للوقت وطرباً للنفس ازدهر الإيقاع والتوقيع الذي تبلور على هيئة غناء وشعر. وهناك بالفعل اجتهادات

علمية للربط بين العروض وموسيقى الشعر العربي وبين حركة الإبل خلال سيرها الطويل إلا أن «كارل بروكلمان» ـ وغيره ـ أنكرها واعترض عليها بقوله: «حفل بعض العلماء في بحثهم عن روابط بين أنواع من العروض وبين سير الإبل، ولم تسفر هذه المحاولات بطبيعة الحال عن نتيجة»(١٩).

وثم تفاعل بين البيئة والإنسان وبين الإبداع الشعري بصورته الموسيقية الغنائية وما فيه من وزن وقافية. من هنا كتب «جرجي زيدان» أن اللغة العربية بثرائها وتعدد مفرداتها وما فيها من أساليب كناية واستعارة، وجناس وطباق سهلت وجود القافية، كما أن العرب بفطرتهم الحساسة، وشعورهم الراقي، وأريحيتهم الدافقة سريعو الطرب، سريعو الغضب تحركهم مشاعر الرغبة والرهبة، والطرب والغلب، ولهذا جاء شعرهم غنيا يصوّر ما يجيش داخل نفوسهم، ويعبر عما في إحساسهم(٢٠).

وفرضت ظروف المجتمع والشعر على من يريد نبوغاً فيه أن يلزم شاعراً معيناً بحيث لا يكتفي بترديد ما يقول بل لا بد أيضاً أن يعيش ما يقول. من هنا استلزم الأمر من الرواة مصاحبة كبار الشعراء في حلهم وترحالهم، وفي غدوهم ورواحهم، وحتى أثناء نزوحهم للبادية التماساً للإبداع الشعري.

ومثل هذه المعايشة والمصاحبة تحقق وظيفتين:

الوظيفة الأولى ـ تضمن لنا حفظ الشعر من الاندثار والضياع فتحفظه في ذاكرة الرواة، وعنهم يأخذ الآخرون.

**الوظيفة الثانية** ـ تتيح للشاعر المبتدئ أن يزيد من رصيده الشعري من خلال نبع ثر لا يكتفي فقط بالرواية عنه بل بالارتواء منه .

**تحديات تطلبت معارف ومهارات:**

تأكد لنا أن البيئة الجاهلية ما كانت سهلة ميسرة، بل قاسية عاتية تطلبت من أصحابها قدرة هائلة على التكيف، ومهارة بارعة للسيطرة عليها والتعايش معها؛ فالخوض ليلاً في بحار الصحراء وبواديها الممتدة من غير شخوص واضحة، وملامح مميزة استلزم معرفة بمواقع النجوم وإلا فقد الطريق، وفقد الطريق معناه الفناء والهلاك .

واستلزم الرعي معرفة بمواقع القطر، ومواطن الغيث، ومواسم المطر، ومسيل الماء، ومنابع العيون، وتتبع الأنواء بحثاً عن الماء حيث وجد لا سيما أن الجدب وانقطاع المطر قد يستمران سنين عدداً .

واستلزم رعي الأنعام والأغنام علماً بالحيوان في مراحل نموه ونضجه، وفي حالات اختلاله ومرضه، وإلا هلك القطيع، وفقدت القبيلة ليس فقط مصدر ثروتها، بل أيضاً مظهر عزتها، ورمز مكانتها؛ فالأنعام والأغنام كانت مصدراً أساسيا للبن واللحم، والشحم والوبر، والتعامل التجاري، بل دفع مهر الزواج، وفدية الأسير، ودية القتيل .

من هنا يقال ــ بحق وصدق ــ إن ارتباط الأعرابي بنوقه وإبله ارتباط حياة وممات .

وإذا انتقلنا إلى مهارة أخرى اشتهر بها العربي والأعرابي فسوف نجد قيافة الأثر وقيافة البشر، فما صلة ذلك ببيئته ومعيشته؟

إذا بدأنا بقيافة الأثر فسوف نجد أنها ضرورة للتعامل مع الصحراء ومعرفة آثار القادمين والفارين، والمهاجمين والمنسحبين، وتتبع آثار الأقدام، والحوافر، والأخفاف في السلم والحرب. وقد مهرت بعض بطون العرب في القيافة إلى حد القدرة على التمييز بين آثار أقدام الشاب والشيخ، والرجل والمرأة، والبكر والثيب.

أما بالنسبة لقيافة البشر فقد كانت ضرورة لحفظ الأنساب وتحديد القبائل، وعقد المحالفات وشن الغارات، ودفع الدية وأخذ الثأر.

وكان هناك أدلاء اشتهروا بقيافة الأثر وقيافة البشر مما احتاج فطنة وذكاء، وفراسة ودهاء، ودربة ومرانا.

مجمل القول أن الثقافة العربية قبل الإسلام استلزمت تربية لها أهداف وغايات خاصة يمكن بلورتها في المحاور الستة التالية:

* التوحد مع القبيلة.

* التمسك بالأخلاق العربية.

* التوسط بالأصنام.

* الإبداع الشعري.

* التمهيد للعمل التجاري بالدرجة الأولى.

* التدريب على مشاق القتال.

ولنبدأ معاً بالهدف الأول.

**١ـ التوحد مع القبيلة:**

على الرغم من قيام ممالك على أطراف شبه الجزيرة فإن القبيلة كانت وحدة النظام المجتمعي بكل تنظيماته وتفاعلاته. من هنا يمكن القول بأن المجتمع الإغريقي ارتكز على المدينة الدولة City-state في حين ارتكز العرب على القبيلة الدولة Tribe-state ، ومثل هذا الارتكاز جعل القبيلة محور الحياة والإطار الاجتماعي الذي يتربى الفرد على احترامه وتقديره والدفاع عن كل فرد من أفراده، من هنا قال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غَزِيَّة إن غَوتَ  غويتُ، وإن تَرشدْ غزية أرشد

بطبيعة الحال ما كانت القبيلة الوحدة الاجتماعية الوحيدة بل ضمت جماعات أو فئات متسلسلة أولها الشعب، ثم القبيلة، فالعمارة، فالبطن، فالفخذ، فالفصيلة.

وبصفة عامة كان الانتماء القبلي أوضح من الانتماء إلى شعب واحد مثلما هو الحال مع المصريين القدماء أو لديانة واحدة مثلما هو الحال مع اليهود القدماء. من هنا قيل بحق إن النسب هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية، والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفهمها الأعرابي القديم(٢١).

ومثل هـذا التوحـد لم يكن اختياراً فـرديا بل حتميـة وضرورة لمواجهة ظـروف الصحراء جفـافاً واتساعاً، ولمواجهـة تحديات المغيرين «فزمالـة الدم هي مبعث كل الالتزامـات السياسيـة والحربية في القبيلة، وعـلاقة الفرد بـالقبيلة كعـلاقته بعائلته. وليس هناك فرق بين الشيء العام والخاص بل الأفراد ـ نظريا على الأقل ـ لهم جميعاً نفس الحقوق والواجبات»(٢٢).

ومما ساعـد على هـذا التوحـد لأغـراض الانتفاع والـدفـاع ثـلاثة عـوامل: العصبيـة، والثأر، والاشتراك على المشـاع في الكـلأ الـذي يـوجـد حيث تحل القبيلة(٢٣).

وفكرة التـوحد تتضمن أنـه كلما زاد ارتباط الفـرد بجماعته ازداد التصـاقا بها، وإذا ابتعد عنها شعر بالاغتراب والوحـدة. من هنا يلاحظ في الجماعات البدائية اختفاء الجماعـات الثانوية من حيـاة الفرد، وتصبح صلته بجماعته الأوليـة صلة مبـاشرة حيث تشمل مجالات حيـاتـه المختلفة، كـذلك لـوحظ أن الإنسـان في حالات الأسر أو الاضطهاد يرتبط بجماعته الأولية ارتبـاطاً يملك عليه كل حياته بحيث لا يستطيع فكاكـا منها أو خروجـاً عليها. وشيء من هـذا القبيل حدث داخل قبائلنا العربية، فمع اتساع الصحراء، وشح مواردها، وعدم وجود سلطة سياسية مـركزية، ولمواجهة ظـروف الإغارة والعدوان كان على كل فـرد أن يتوحد مع قبيلته ويحتمي بها سلماً وحرباً، ويدافع عنهـا ظالمة أو مظلومة. «فالشخص المعتدى عليه كان عليه أن يثأر لنفسه بنفسه وعلى قبيلته أن تشد من أزره»(٢٤).

وقـد وصل الأمر حتى بعـد الإسلام إلى حـد بالغ الصعـوبة والتعقيـد، ومن

ذلك مثلاً أن الإمام علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ـ في معركة الجمل، وفي معركة صفين وغيرهما واجه صعوبة عسكرية حقيقية إذ اشترطت عليه القبائل المحاربة ألا تحارب إلا رجال قبيلتها الذين يكونون ضده. والسبب في ذلك أن القبيلة لم تكن تستطيع رؤية قبيلة غريبة تفتك بإخوانهم من قبيلتهم. وإذا كانت الظروف المجتمعية فرضت التوحد مع القبيلة على المستويات الاجتماعي والتربوي، والشعوري واللاشعوري فإن فردية البدو «يرافقها الشعور بالجماعة الذي يزداد قوة وقت الخطر فيحمل البدوي على أن يتناسى الفردية لصالح المجموع»(٢٥).

إذن الهدف الأول للتربية العربية قبل الإسلام كان التوحد مع القبيلة، من أجلها تُشهر السيوف، وتُشرع الرماح، وتخضب الرمال بصرف النظر عن كونها مخطئة أو مصيبة.

مجمل القول أن التوحد مع القبيلة يعني التزاماً حادا بأوامرها، وانصرافاً جادا عن نواهيها، وانصياعاً للعرف والنواهي. وعلى قدر حماية القبيلة لأفرادها ودفاعها عنهم كان لا بد من التزامهم الخلقي وانضباطهم القيمي، وهذا ما سيتضح في الهدف التالي:

**٢ ـ التمسك بالأخلاق العربية:**

على الرغم من أن الضبط الأخلاقي والالتزام القيمي هدف لكل تربية عربية وغير عربية فإنها في حالة التربية العربية كانا سمة مميزة بدرجة لا هوادة فيها. وإذا حاولنا البحث عن الأسباب والعوامل لأدركنا أن الضبط والصرامة سمة

الصحراء، وخاصية للمجتمعات القبلية البسيطة وإلا انهارت التقاليد، وتفسخت الأعراف.

من هنا نجد أنه على الرغم من جفاف الصحراء وفقرها فإنها غنية في أخلاقها، متطرفة في التزامها تخلع الخارجين وتطرد غير الملتزمين، وجهاء كانوا أو فقراء، من هنا قال «بيتير مانسفيليد»: «إن البيئة العربية القاسية استنت لنفسها قانوناً حديديا يصعب الخروج عليه، وهذا القانون مبني على عشق الحرية والذود من أجلها»(٢٦).

ومثل هذه الأخلاق الكريمة بلورها بعض الباحثين في مفهوم واسع هو مفهوم المروءة التي تضم خصالاً كثيرة منها الشجاعة، والوفاء، والكرم(٢٧)، والنجدة، والشهامة، والمحافظة على العرض، وعشق الحرية(٢٨)، والثأر، ونقاء النسب، وحماية الجار(٢٩).

وكان العرب يعتزون بهذه الخلال ويعتبرونها ثروة لهم ويتصورونها محدودة عند غيرهم وربما معدومة، لذلك افتخروا بها شعراً ونثراً، وعدوها فرصة للمباهاة وتناقل الأخبار، وساعدهم على ذلك نبوغهم في الشعر وتفوقهم في الهجاء. وإلى جوار تطرفهم في الالتزام بالأخلاق الكريمة انتشرت صفات ذميمة مثل شرب الخمر وما يرتبط بذلك من لهو ومجون، والغلظة والقسوة، والكبر والعصبية المتطرفة، من هنا جاء الحديث النبوي الشريف «من بدا جفا»، ولعل هذا ما سيتضح في الهدف الثالث.

### ٣ ـ التوسط بالأصنام:

يقول المولى عز وجل: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[٣٠] ومعنى هذا أن العرب في أول أمرهم كانوا حنفاء ثم تفرقت بهم السبل. وقد فسر ابن الكلبي ذلك في كتابه «الأصنام» بما معناه أن ذرية إسماعيل بعد إبراهيم تكاثرت بمكة حتى ضاقت بهم، فتفسحوا في البلاد طلباً للمعاش ونسي معظمهم الديانة الحنيفية.

وظلت الغالبية العظمى من العرب تؤمن بوجود الله، وتشرك معه أنداداً ووسطاء، ومع ذلك كان هناك عدد من الدهريين وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٣١]. غير أن فريقاً منهم كان يؤمن بالبعث والحشر والأجساد بعد الموت، ويستشهدون على ذلك بالعقيرة أو البلية ويقصد بها عقر حيوان لا يسقى حتى يموت جوعاً وعطشاً، أو يحفر له ويترك في حفرته إلى أن يموت[٣٢].

وظلت هذه البيانات والأفكار تصطرع داخل الجزيرة بين الحنيفية السمحاء، والشرك والدهرية، والمسيحية واليهودية إلى أن بزغ فجر الإسلام.

ووسط هذا اللجب والصراع كان بعض يتلمس طريقه محاولاً الخروج من مأزق الشرك وما ارتبط به من عقائد وطقوس.

### ٤ ـ تنمية الإبداع الشعري:

سبق أن أوضحنا أن عوامل كثيرة من بينها البيئة العربية من حيث الصفاء والانبساط، والاشتغال بالرعي والحرب، والأخلاق العربية من حيث التأمل وقوة الذاكرة، والمفاخرة والمباهاة، والقدح والهجاء كل ذلك ساعد على نمو الشعر العربي بحيث أصبح صفة يفتخر بها العربي، ويباهى بها غيره من الشعوب والقبائل. من هنا عُدَّ الشعر سجل العرب ووسيلة توثيق حوادث حياتهم من أعياد واحتفالات، وعواطف وإحساسات، وكر وفر، وغزو ونهب. وساعدت جلسات اللهو والخمر، وأسواق التجارة والتعارف على نشر هذا اللون من الإبداع بحيث حرصت كل قبيلة على أن يخرج من بين صفوفها الفارس المجلجل في ميدان السيف والشعر بوصف أن الشعراء حماة الأعراض، وحفظة الآثار، ونقلة الأخبار.

وتفنن العربي في وصف حياته بالشعر بحيث اعتبر أبرز فنون العرب وأكثرها شهرة. وإذا كان المصريون القدماء تفوقوا في تسجيل حياتهم بالنحت والنقش على الحجر، فإن العرب تفوقوا في تسجيل نبضاتهم بالشعر بكل ما فيه من خيال ورواء. من هنا فليس غريباً أن معظم ما ورد إلينا عن البيئة الجاهلية ورد في شعرها، ولم يأت عن طريق الرسم والنحت، والمخربشات والنقوش النافرة، ولهذا ذهب بعض الباحثين إلى أن الشعر الجاهلي وثيق الصلة بحياة العرب وتصوير دقيق لكل تفاصيلها ودقائقها المادية والمعنوية.

ونتيجة أهمية الشعر في حياة العرب سلماً وحرباً حرصت الأسر على أن يلتقط

أبناؤها اللغة في فصاحتها الأولى من البادية وأهل البلاغة، وكانت كل أسرة تتمنى لابنها أن يلمع في ميدان القصيد فيشدو بمفاخرها، ويهجو أعداءها؛ لذلك إذا نبغ في قبيلة شاعر أتت القبائل الأخرى للزيارة والتهنئة، وأقيمت الاحتفالات وبسطت الأطعمة.

مجمل القول أن الشعر العربي لم يكن كحاله اليوم محصور الجانب بل كان الوسيلة الأساسية للتعبير والتواصل، والإعلام والإخبار، والتسجيل والانتشار. وإذا كانت الأمم اليوم تتبارى في إنجاب العلماء والفنانين والمبدعين، وتوفير الظروف المناسبة لظهورهم وإبداعهم فإن ذلك كان معقد آمال القبائل العربية مع الشعراء نظراً لدورهم البارز دفاعاً عن القبيلة وإشادة بها، وتسجيلاً لأيامها وانتصاراتها، وردا على أعدائها وهجاءً لهم.

**٥ ـ التمهيد للعمل التجاري:**

اشتهرت بعض القبائل العربية بالتجارة ومهرت فيها مما أفادها ثقافيا وزاد من ثروتها اقتصاديا. وقد ظهر ذلك واضحاً في قريش مثلاً حيث «أفادت من التجارة فوائد معنوية ومادية، حيث ساعدها الاشتغال بها على مخالطة أقوام مختلفين، والتعرف على مدنيات متباينة، ومعرفة أحوالهم وكيفية التعامل معهم مما كان له أثر كبير في تثقيف عقولهم ورقي مداركهم»(٣٣).

والتجارة تتيح التعرف والاطلاع على ثقافات مغايرة وربما اكتساب بعض الخصائص، كما أنها تتطلب مهارات ودرايات متعددة. ويلاحظ أن الاهتمام بالتجارة لم يكن على توازن مع سائر المهن والحرف بل ربما على حسابها، إلا أن

الاشتغال بالتجارة والمهارة فيها لا يعني أن التربية العربية حذفت الزراعة من بين أهدافها، فعرب الحضر وأهل الماء الغزير ــ كما يقول جواد علي ـ أتقنوا الزراعة، وتفننوا فيها، ولم يجدوا في ذلك خسة أو دناءة. والعرب الذين توافرت لهم مواد العمل وظروفه، اشتغلوا بالحرف والصناعات، كما هو شأن الطائف وجنوب الجزيرة، بل بعض رجال مكة أيضاً، أما الذين ازدروها، وكرهوها فهم الذين لم تتوفر لهم الأسباب التي تغريهم بالاشتغال بالحرف والصناعات، ولذلك كرهوها كره من يكره شيئاً لأنه لا يملكه ولا يناله أو لأن يده لا تصل إليه.

وشأن كل المجتمعات القديمة كانت الحرف غالباً ما تورث لذلك فإن بعض الحرف والصناعات مثل النجارة والبناء، والتعدين والمعادن، والجلود والملابس، والتجميل كانت تورث من جيل إلى آخر عن طريق التقليد والاقتداء وداخل صفوف الطائفة أو الصنعة.

ولم يكن العرب وحدهم هم الذين ينظرون إلى معظم الحرف والمشتغلين بها نظرة ازدراء واحتقار، بل كانت هذه بصفة عامة نظرة معظم الشعوب القديمة لأصحاب الحرف، وأية مراجعة للتاريخ اليوناني مثلاً توضح التأكيد على العلوم النظرية، والحرص على تعلم الرياضيات والميتافيزيقا، والتركيز على ذلك في البرامج التعليمية. من هنا نجد الفكر التربوي عند اليونان بصفة عامة، وعند أفلاطون بصفة خاصة يقسم الكون، والمجتمع، والطبيعة البشرية إلى ثنائيات متضادة:

الجانب المادي، والجانب الروحي، وبناء على ذلك قسم البشر إلى ثلاثة أصناف:

** صنف يخضع للغريزة والشهوة وهم العمال.

** وصنف يخضع للشجاعة والبسالة وهم الجنود.

** وصنف يخضع للعقل الخالص وهم الحكام والفلاسفة(٣٤).

وبحكم هذه التقسيمات الحادة القاطعة فالأمر لا يقبل التغيير أو التعديل بل هذه أمور محكومة بالميلاد والوراثة.

**٦ ـ التدريب على مشاق القتال:**

ما كان للأهداف السابقة أن ترسخ وتستقر من غير تدريب على القتال واستعداد له منذ أن يشب الشباب؛ فعدم وجود سلطة مركزية يخشى بأسها ويحسب حسابها، وتعرض القوافل لنهب المعتدين وسلب السالبين، والنزاع حول المراعي، والخصومة حول الماء، كل ذلك تطلب تدريباً مبكراً على القتال، واستعداداً للتضحية بالنفس في مقابل الشرف والعرض، حتى لو كان السبب تافهاً والمبرر مفتعلاً من وجهة نظرنا. ونحن لا ننسى حرب البسوس التي استمرت أربعين عاماً شب فيها الولدان، وشاخ فيها الشبان. من هنا قيل عن عرب الجاهلية إنهم لا يفرغون من دم إلا إلى دم فهم دائماً واترون موتورون حياتهم مقسومة على هذين الحدين، وإلى هذين الشطرين.

وأسهمت الأخلاق العربية في ترسيخ هذا الهدف فالعصبية والكبر، والشجاعة والحماسة، والرغبة في الانتقام والأخذ بالثأر، ودور الكلمة في تأليب المشاعر وتهييج العواطف كل ذلك جعل من مهارات القتال هدفاً تسعى التربية إلى تعميقه، لذلك قيل: «أمن القبيلة بل حتى مجرد وجودها يعتمد على قدرتها القتالية؛ فبالقوة وحدها تستطيع أن تظل في مأمن، وظروف الصحراء تؤكد أن أكثر الجماعات نجاحاً في الحياة أكبرها عدداً وأعظمها قوة»(٣٥).

وساعدت الحمية والحماسة، والانفعال بأقل الأفعال، وحفظ الشعر وروايته على تغذية الوجدان وتعميق الإيمان بهذه القيم بحيث أهلكت الصراعات والحروب الزرع والضرع، والأخضر واليابس. وفي كثير من الأحيان «كان بعضهم يتربص ببعض، إذ كانت حياتهم حربية دامية، وقد تحولت هذه الحياة من بعض وجوهها إلى مصدر رزقهم إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف ضد مخاطر الصحراء وضد من يترصد من الأعداء»(٣٦).

كانت الأهداف الستة السابقة أهم أهداف التربية العربية قبل الإسلام، وقد يوجه بعض انتقادات حادة إليها بحكم أنها جامدة وإستاتيكية، إلا أن معظم الدارسين يدافعون عن التربيات القديمة بقولهم إن العيب ليس فيها بل في المجتمع الذي أنتجها حيث كان المجتمع يتميز بالطبقية، والهرمية، والجمود، والإستاتيكية. من هنا يمكن القول بأن العيب ليس في هذه الأهداف، بل في مجتمعها ذاته وما ساد فيه من قوى وعوامل.

## الهوامش والمراجع

(١) الغبراء : فقراء الناس، وهي مشتقة من الالتصاق بالغبراء، أي الأرض.

(٢) العرب العاربة وهم العرب البائدة أو الهالكة ومنهم عاد، وثمود والعمالقة، ومدين، وحضرموت. إلخ. ولعل العاربة هنا بمعنى الفاعلة للعروبية، أو الراسخة فيها فهي تأكيد للمبالغة مشتقة من «عرب».

(٣) العرب المتعربة، ويعرفون بعرب الجنوب أو عرب اليمن أو اليمنيين، أو القحطانيين نسبة إلى أبيهم «قحطان»، ولعله كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

والمتواتر أن قحطان أول جد معروف للعرب، ورئيس ملوك اليمن، وتعلم العربية من العرب البائدة الذين كان معاصراً لهم. والعرب المتعربة أقاموا حضارات ودولاً باليمن مثل الدولة السبئية، وكان منهم يهود ونصارى.

(٤) العرب المستعربة وهم عرب شمالي اليمن يسكنون تهامة والحجاز ونجدا وما وراء ذلك إلى مشارف الشام والعراق، ويسمون بالإسماعيليين نسبة إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم، وكان من ذريته عدنان، ولذا سمي هذا القسم من العرب بالعدنانيين، ونشئوا بين العرب فاستعربوا، ومن ثم سموا بالمتعربة.

(٥) المدر هو الطين الجاف الذي كانت تبنى به بيوت المدن والقرى تمييزاً من الوبر.

(٦) النويري: بلوغ الأرب، الجزء الأول، ص ١٦.

(٧) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٣٩.

(٨) علي الجندي: مقدمة لدراسة الأدب الجاهلي، الجزء الأول، ط٣، الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٩م، ص١٦.

(٩) عفت الشرقاوي: دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٣٩ـ٤٢.

(١٠) راجع :

** جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧١م، ص١٤٢.

** فيليب حتى: تاريخ العرب (مطول)، ترجمة إدوارد جرجي وجبرائيل جبور، دار الكشاف للنشر والطباعة، بيروت، الجزء الأول، ص ١١٧ـ١١٨.

** ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٩.

** لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة: مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(١١) عبد الرحمن الطيب الأنصاري: كتابات من قرية الفاو، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، العدد الثالث، الرياض، ١٩٧٤م.

(١٢) فتحي عفيفي بدوي: حول النقوش الصفوية القديمة، الدارة، العدد الثاني، السنة العاشرة، ص٤٨.

(١٣) يرى بعض أن وجود المعلقات على أستار الكعبة من باب الأساطير لأن المقصود بالمعلقات المقلدات، أي: القصائد الجيدة. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(١٤) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ط ٢، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٢م، ص ١٠ ـ ١١.

(١٥) علي الجندي: مقدمة لدراسة الأدب الجاهلي، مرجع سابق، ص ١٦٦.

(١٦) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثامن، ص ٤٤ ـ ٤٦.

(١٧) يبايز بعض بين الكهانة والعرافة: فالأولى خاصة بالمستقبل، والثانية بالماضي.

(١٨) علي حسن الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، ص ٣٣٦.

(١٩) المرجع السابق: ص ٤٤.

(٢٠) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، جـ١، دار الهلال، ١٩٥٧م، ص ٦٨.

(٢١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٤، ص ٣١٤.

(٢٢) صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب، جـ ١، بغداد، ص ١٥٢. والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص ٣٥٩ ـ ٣٦١.

(٢٣) لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، مرجع سابق، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، جـ١، القاهرة، ص ٥١ ـ ٥٢.

(٢٥) صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب، مرجع سابق، ص ١٥١.

(26) Peter Mansfieled. The Arabs, London, 1982, p. 15.

(٢٧) فيليب حتى: تاريخ العرب، جـ١، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٢٨) سعيد إسماعيل علي: تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، ص ٢٠١ ـ ٢١٣.

(٢٩) ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠م، ص٢٣٧.

(٣٠) سورة آل عمران: الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.

(٣١) سورة الجاثية: آية ٢٤.

(٣٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٦، ص ١٢٣.

(٣٣) بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، جـ١، ١٩٥٦م، دمشق، ص٢٣.

(34) Freeman Butts. A Cultural History of Education, McGraw-Hill Book Company, 1947, p. 43.

(35) M. W. Watt. Muhammad At Mecca, Oxford Univeristy Press, p. 16.

(٣٦) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص ٧٨.